يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل – الشيخ ناصر مكارم الشيرازي – ج ١٩ – ص ٣٨٠ – ٣٨٢

وفي الآية التالية ينتقل الحديث من أخبار يوم القيامة إلى الحياة الدنيا : ‹ صفحة ٣٨١ › يقولون أإنا لمردودون في الحافرة . " الحافرة " : من (الحفر) ، بمعنى شق الأرض ، وما ينتج من ذلك يسمى (حفرة) ، يقال : حافر الفرس ، تشبيها لحفرة الأرض في عدوه ، و " الحافرة " : كناية لمن يرد من حيث جاء ، كما لو سار إنسان على أرض ، فيترك فيها حفرا لتحمل آثار قدمه ، ثم يعود إلى نفس تلك الحفر ، فالحافرة : تعني الحالة الأولى (١) .

وتستمر الآية في سرد كلامهم : أإذا كنا عظاما نخرة (٢) . فهكذا هو حال ودأب منكري المعاد وعلى الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد ، وبقولهم المعروف : كيف للعظام البالية النخرة والتي تحولت إلى ذرات تراب أن تعود مرة أخرى جسما كاملا ، والأكثر من هذا . . أن تسري فيه الحياة ولكنهم لم يفقهوا إلى أنهم خلقوا من ذلك التراب ، فكيف أصبحوا بهذه الهيئة الحية بعد أن لم يكونوا شيئا ؟

" نخرة " : صفة مشبهة ، من (النخر) ، بمعنى الشجرة المجوفة البالية ، والتي إذا دخل فيها الهواء أعطت صوتا معينا ، مثله (النخير) ، وعمم الاستعمال ليشمل كل شئ بال في حال تآكل وتلاش ....

. وقد عبرت الآية السابقة عن قولهم بصيغة المصارع " يقولون " إشارة إلى دوام ترديدهم لما يقولون به ، في حين ذكر الفعل في الآية المبحوثة بصيغة الماضي " قولوا " إشارة إلى أنهم قليلا ما يقولون ذلك . وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة ، وبلسان قاطع ، يقول : فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة . فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر ، فما أن يصدر الأمر الإلهي لنفخة الصور الثانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق ، نعم . . فتشرع كل تلك العظام النخرة وما صار منها ترابا للتجمع على الهيئة الأولى ، وليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسري فيهم روح الحياة ! " الزجرة " : بمعنى صيحة بشدة وانتهار ، ويراد بها : نفخة الصور الثانية . " زجرة واحدة " : إشارة إلى سهولة الأمر أمام قدرة الله سبحانه وتعالى ، وإلى سرعة تنفيذ أمره سبحانه (

لقيام القيامة) . . . فبصوت واحد من ملائكة القيامة ، أو من صور إسرافيل يرتدي جميع الأموات لباس الحياة من جديد ليحضروا عرصة المحشر للحساب .

" الساهرة " : من (السهر) ، وهو الأرق ، وقيل : لأرض القيامة " الساهرة " لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة . وقيل : الساهرة : اسم للصحراء ، لأن جميع الصحاري مخيفة ، وكأن الخوف فيها يطرد النوم من العين (١) .

. . . . .

. ‹ هامش ص ٣٨١ › ١ – اسم فاعل هنا بمعنى اسم المفعول ، فالحافرة إذا بمعنى المحفورة . ٢ – وتقدير الجملة مع محذوفها : (أئذا كنا عظاما نخرة نرد أحياء) أو (أئنا لمبعوثون) . ‹ هامش ص ٣٨٢ › ١ – لسان العرب : سهر ، مجمع البيان : ج ١٠ ، ص ٤٢٩ ، وتفسير القرطبي ، ج ١٠ ، ص ٦٩٩٠ .

(قال دروريش) الزمخشري: «فإن قلت: ما حقيقة هذه الكلمة؟ قلت: يقال: رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي أثر بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفرا كما قيل حفرت أسنانه حفرا إذا أثر الأكال في أسناخها والخط المحفور في الصخر، وقيل حافرة كما قيل عيشة راضية أي منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم نهارك صائم ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته أي إلى طريقته وحالته الأولى قال:

أحافرة على صلع وشيب ... معاذ الله من سفه وعار»

أنشده ابن الأعرابي والهمزة للإنكار والحافرة في الأصل الطريق المحفور بالسير فتسميته حافرة مجاز عقلي أو على معنى النسب أي ذات حفر ثم استعملت في كل حال كنت فيه ثم رجعت إليه

وهي نصب بمحذوف أي أأرجع حافرة أي في طريقتي الأولى من الشباب والصبا أو على نزع الخافض أي أأرجع إليها والصلع انحسار شعر الجبهة ويغلب في الهرم.

(الساهرة) الأرض البيضاء المستوية سمّيت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم عن ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة، قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحي السراب مجللا ... لأقطارها قد جئتها متلثما